فقصد المتكلم معنى ما، هو الذي يجعل اللفظ ذا «معنى» أي يجعله دالاً، وهكذا جدَّ المفسرون المسلمون في البحث عن الدلالة، باعتبار «مراد المتكلم» مستعينين على ذلك بمعطيات الفكر والحياة الروحية التي جاء النص القرآني منظماً لها بل منشئًا لبعض أساسيتها.

ويمكننا أن نتخذ من المثال الذي دلَّل به ابن القيم على صحة كلامه، مثالاً تطبيقيا لمنهج تحليل السياق لاستنتاج الدلالة، قال ابن القيم: «فانظر إلى قوله ﴿ذق إنك أنت العزيز الحكيم﴾ [1] كيف تجد سياقه يدل على أنها الذليل الحقير». فالسياق هنا، قد غير الدلالة المباشرة إلى الضد، وهو ما لا يجوز ـ في قواعدهم ـ القول به دون قرينة دالّة عليه، فاعتبروا السياق هنا قرينة عليه، من القوة بما يكفي لتغيير الدلالة كليا على هذا النحو، وهي دلالة لا تحتملها هذه الألفاظ بمعانيها العامة الشائعة في العربية فالعزة لا تدل على الذل والكرامة لا تدل على الحقارة لكن تمثل سياق الآية يقود إليه، قال الله تعالى: ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين. من فرعون إنه كان عاليًا من المسرفين. ولقد اخترناهم على علمٍ على العالمين. وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاءٌ مبين. إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين. فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين. أهم خيرٌ أم قومُ تبعٍ والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين. وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين. ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون. إن يوم الفصل كان ميقاتهم أجمعين. يوم لا يغني مولًى عن مولٍى شيئًا ولا هم ينصرون. إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم. إن شجرة الزقوم طعامُ الأثيم. كالمهل يغلي في البطون. كغلي الحميم. خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم. ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم. ذقْ إنك أنت العزيز الكريم. إن هذا ما كنتم به تمترون﴾[2].

في الآيات الأولى غير بعيد عن هذه الآية ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ علا فرعون على بني إسرائيل، وكفر بما جاء به نبيهم وعذبهم بإيمانهم واتباعهم الرسولَ عذابًا مهينًا.

وكان من كفره إنكاره البعث والجزاء، ثم سيقت مقارنة موجزة بينه وبين من قبله من أمثاله المكذبين، فأيهم خير وأيهم يعز على عذاب الله ونقمته حين يجمعون لديه لميقات يومٍ معلوم.

---

(١) الدخان: ٤٩.

(٢) الدخان: ٢٩ ـ ٥٠.